جماعة المسلمين بالبصرة
ونشأة الامامات الاباضية

محاضرة القاها الاستاذ البولندي تاديوز ليفيتسكي
بمدينة بني يسفن في أمسيتين خاصتين
وذلك في غضون شهر مارس 1985

نقلها الى العربية : يوسف اطفيش

سـادتي واصدقائي الاعـزاء

ان نص محاضرتي لكم يتناول جماعة المسلمين بالبصرة ونشأة الامامات الاباضية بحضرموت واليمن وعمان والمغرب فهكذا سوف اهتم في قسم أول منها باقدم فترة من تاريخ المذهب الاباضي معتمدا ـ فضلا عن المصادر الاباضية امثال تآليف ابي زكرياء والشماخي والبرادي والدرجيني والسالمي وكذا السير العمانية ـ المصادر العربية السنية والمؤلفات الاوروبية الحديثة ايضا .

وحسب الخبر الاسلامي المأثور والذي ضبطه المحدث والمؤرخ العربي ابو مخنف الازدي وذلك حوالي منتصف القرن الثاني الهجري (منتصف القرن الثامن الميلادي) فان ظهور الاباضية يقع عام 65 هـ (484/85 م) حين انفصل عبد الله بن اباض عن الخوارج المتطرفة . الا أن نشأة المذهب تبدو في واقع الامر أقدم من ذلك بسنوات . فينبغي في نظرنا ربط ماقبل تاريخ الاباضية بفرقة القعدة "الخوارج" تلك التي نشأت بالبصرة حوالي منتصف القرن الاول هـ (السابع م) حول عظيم من عظماء "الخوارج" المعتبرين أعني أبا بلال مرداس بن ادية التميمي . وتعد الاثار الاباضية أبا بلال من رواد المذهب بل من ائمته السابقين . ويبدو أن لهذه الآثار الاباضية جانبا مرموقا من الصحة لاسيما اذا اخذنا بعين الاعتبار وجود علماء اباضية معدودين من بين أصحاب أبي بلال مرداس الاحماء ، ممن سوف يعظم شأنهم امثال جابر بن زيد المنظم الحقيقي للمذهب وامثال الوليد العبدي احد رؤساء الخوارج المعتدلة الذين انفصلوا عن نافع بن الازرق (منشئ فرقة الازارقة من الخوارج المتطرفة) . اوليست أبي بلال من جانب آخر ولا سيما تحريمه الاستعراض تكاد تماثر تمام المماثلة كل النظريات الاباضية ؟

وبعد خروج أبي بلال على الامويين ووفاته عام 61 هـ (680/81 م) آلت رآسة الخوارج المعتدلة بدون شك الى عبد الله بن اباض حين اعتزل بصفة نهائية فرقة الازارقة عام 65 هـ . وكان المتطرفون من الازارقة قد اعلنوا الخروج على عبد الله بن الزبير الخليفة المنافس للأمويين وغادروا البصرة ، بينما يستقر رأي عبد الله بن اباض بعد مهلة تردد على القعود بها هو واصحابه .

وبذلك تستهل أول حقبة في تاريخ الاباضية يجوز ان تدعى بعصر الكتمان .

ولم يبلغنا من اخبار عبد الله بن اباض الا النزر القليل ، فهو يعد أول فقيه للمذهب على حد تعبير كتب الاباضية (أعني منها خاصة السير العمانية) ، وكثير اما تدعوه نفس المصادر امام التحقيق . وامام المسلمين أو امام القوم . ولقب الامام في نظرنا لا يصدق عليه الا لنشاطه خلال فترة قصيرة من الزمن ولمشاركته في الدفاع عن المدينة المنورة ضد الامويين عام 64 هـ (683/84 م) ولعل الاوجه ان يعتبر لقب الامام اشارة الى وضيف رئاسي له في شبه حكومة اباضية (تيوقراطية) شبه تشكلت بالبصرة تدعى جماعة المسلمين . وتكون هذه المنظمة مجلسا يضم عددا من ابرز الشيوخ . يجوز تشبيهه بمجلس العزابة لاباضية شمال افريقيا . واذا استثنينا النشاط في تلك المساهمة لحملية المدينة المنورة وجدنا عبد الله بن اباض ذو ميالا يحيد عن الاعتدال والهدوء ويرجع على الراجح علة قعوده ذلك الى امل راسخ في نفسه ان يهتدي يوما الى عقد اتفاق مع الخليفة الاموي الجديد عبد الملك بن مروان الذي ملك من 65 الى 86 هـ (705685 م) ولقد نجح فعلا في الاتصال بالخليفة عن طريق المراسلة فاحتفظت لنا كتب السير الاباضية بنصحتين أو رسالتين ((من عبد الله بن اباض الى عبد الملك بن مروان)) تشهدان بروابط الود بينهما . وتبدو احدى الرسالتين عبارة عن رد له لكتاب صادر اليه من عبد الملك بن مروان بواسطة رسول يدعى سنان بن عاصم . وهذا الاثر نستخلصه من كتب البرادي والشماخي والسير العمانية (للمؤلف المجهول) . وتحتوي الرسالتان على عرض وجيز ـ الاول من نوعه ـ لمبادئ

.../...

المذهب الاباضي •وقد عالج هذه المسراسلة بالدراسة العالم الايطالي المعروف الاستاذ ريناتشي في مقال له سنة1954 أما الشماخي فيضيف من جهته أن لعبد الله ابن اباض تأليف أخر في مناظرة الخوارج المتطرفة•

كما أننا نجهل تاريخ وفاة عبد الله بن اباض •وغاية ما نعلمه فأنه يعد في السير الاباضية من الطبقة الثانية من علمائهم الذين نبغوا خلال النصف الثاني من القرن الاول الهجري •ويرى الشهرستاني (صاحب كتاب الملل والنحل) المشهور من أهل القرن الثاني عشر الميلادي وكذا عماد الدين القزويني الجغرافي من القرن الثالث عشر الميلادي أن عبد الله بن اباض كان لا يزال في قيد الحياة طاعن السن أيام آخر خلفاء الامويين مروان بن محمد (أي بين744و 750م•) الا أن خاطرنا لا يطمئن لهذا الاثر تمام الاطمئنان•

ثم واصل بالبصرة جابر بن زيد الازدي أعظم فقهاء المذهب الاباضي والمحدث الجليل وخليفة عبد الله بن اباض نفس السياسة ازاء الخلفاء الامويين ويعتبر — ولفو •أهل السنة" جابر بن زيد الذي يرجع أصله الى قرية عمانية من اعمال نزوى (بفتح أول او كسره) وفقا لما جاء في السير العمانية وفي معجم البلدان لياقوت الحموي ويعتبرونه من أبرز "خوارج" العصر الاول •وقد ولد جابر بن زيد على— الراجح سنة18هـ• (639م) بينما التردد في تاريخ وفاته على93هـ(711/12م•) أو96هـ• (714/15م) أو103هـ• (721/22م) وكان المعاصر لعبد الله بن اباض الاصغر سنا منه على الظاهر•

وقد أخذ جابر بن زيد العلم عن عبد الله بن عباس (ابن عم الرسول عليه السلام) المشهور بمعرفته الواسعة للحديث والمتوفى عام67او68هـ•اي 687او688م) وكان جابر من اخلص أصحابه يروي عنه الاحاديث الكثيرة على ما يذكره الشماخي وياقوت الحموي •لهذه الاسباب ظل جابر بن زيد مع تبحره في العلم يتمتع بتقدير بالغ من طرف المسلمين المعاصرين له جميعا •ويذكر الشماخي بهذا الصدد اعجاب مالك بن انس نفسه منه •ويبدو أن جابر بن زيد كان المصنف لاقدم مجموعة عرفت في الحديث •وكتابه هذا الذي ينقسم الى خمسة أبواب والذي يدعى بالديوان هو اليوم في حكم المفقود •

ومن بين من أخذ عن جابر بن زيد عدة محدثين من أهل السنة •وهذا هو الامر الذي دعا ياقوت الحموي أن يصف جابرا بأحد ائمة السنة •وكان جابر

•••/•••

ابن زيد من جهة أخرى ... الخوارج المتطرفة ... بهذا الطريق اصول الفقه الاباضي وحدوده كما نعرفها وهذا ما جعل المصادر الاباضية تدعو اصل المذهب بينما تلقبه المصادر المالكية امام المسلمين وبهذا يعود الفضل اليه لا لعبد الله ابن اباض في تنظيم المذهب فكان من المقدر له أن يحقق السياسة التي شرع فيها عبد الله بن اباض من قبله وينجزها أزاء الامويين لا ستمالتهم نحو مذهبه.

فلقد أسعف الحظ الاباضية فعلا طوال السنوات الاولى لرئاسة جابر بن زيد الازدي حيث فاز جابر في تأليف روابط الصداقة بينه وبين الوالي الاموي القاهر على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (95 - 714م) وتم ذلك بواسطة كاتب الحجاج نفسه الوليد بن يزيد "المخارجي" في الوقت الذي كان الحجاج يواصل فيه قتال الخوارج المتطرفة واستمرت علاقات الود قائمة الى ما بعد تأسيس مدينة واسط سنة 705م.

علاقات جابر مع الحجاج بن يوسف

الا أن الوضع أخذ يتوتر تدريجيا خلال السنوات الاخيرة للقرن الاول الهجري وترجع العلة في ذلك على الظاهر الى أمور ثلاثة احداها وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان وكان ميالا الى الاباضية كما قررنا سابقا وثانيها ما كان بين اباضية البصرة حين شرعوا في ربط أواصر أخوية بأسرة آل المهلب ممن كان الحجاج يكن لهم البغض الشديد حتى أنه أصبحتا [illegible] من بين أنصار الاباضية الغيورين عاتكة أخت يزيد بن المهلب نفسه الوالي على خراسان الذي تم عزله بدسيسة من الحجاج وزج في السجن بأمر منه سنة 705م كما أصبحنا نعد من بين انصارهم امرأة اخرى تنتمي الى نفس الاسرة العلوية وكانت مجاورة الحرم الشريف خلال النصف الاول للقرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وثمة عامل ثالث جدير بالذكر يتمثل في.. تصلب موقف اباضية البصرة وتغلب العناصر الثورية من بينهم وأصحاب الخروج ممن يرغبون في الانتقال من حال القعود الى حال الشراء واحتفظت لنا كتب المذهب باسم أحد زعماء هؤلاء العناصر وهو بسطام بن عمر الصبي المدعو أيضا باسم مصقلة وكان قبل صفريا من أصحاب شبيب بن يزيد الشيباني ثم دان بالمذهب الاباضي واستقر بالبصرة حين انهزم شبيب سنة 77هـ (696م) وكان بسطام ذلك فضلا عن مواهبه الحربية متكلما.

وانجر من نشاط أصحاب الخروج من بين الاباضية انتفاض في نفس الحجاج وكان السبب المباشر على الظاهر في قطع العلاقات بينه وبين جابر اغتيال احد جواسيس الحجاج بوحي من جابر بن زيد نفسه وعند ذلك شرع الحجاج في عملية قمع شنيع ضد الاباضية فأجلى أكبر رؤسائهم الى عمان (أمثال جابر بن زيد) ورمى ببقيتهم في السجن ومن بين من أودع السجن أبرز تلاميذ جابر بن زيد وخلفه من بعده على رأس جماعة المسلمين بالبصرة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وهو الذي قدر له من بعد ذلك أن يتكفل بمهام سياسة خطيرة في عهد آخر خلفاء الامويين.

.../...

. ويرجح على الراجح أبوعبيدة مسلم الى أصل ايراني (واسمه بالفارسية على ما ورد في كتاب الاغاني كودين أو كورين) وكان مولى لبني تميم من قبائل العرب. ولما توفي الحجاج وخلفه يزيد بن المهلب، وكان ينتمي الى حزب عربي متعطف للإباضية، أفرج عن ابي عبيدة وبقية اباضية البصرة. وعين هذا على رأس جماعة المسلمين بها . ويدعو مؤلفو الاباضية أبا عبيدة امام المسلمين. الا انه يبدو، كما هو الشأن عند جابر بن زيد قبله، أنه لم يحد وضع الرآسة لجماعة المسلمين بالبصرة والتقدم على بقية أعضاء مجلسهم. وكان أبوعبيدة عالما جليلا قد صنف مجموعة أحاديث يرويها عن جابر بن زيد وجعفر بن السماك وصحار العبدي. فكان الاباضية يقبلون من جميع انحاء العالم الاسلامي لاخذ العلم عنه. وكانت سياسة أبي عبيدة بادئ بدء تساير تمام المسايرة سياسة جابر بن زيد قبله في الجنوح الى مسالمة الامويين. ومما ساعده على ذلك موقف الوالي الجديد على العراق يزيد بن المهلب حيث كان يمت الى اباضية البصرة بقرابة متينة نظرا لانحته عاتكة الاباضية الخيور كما أشرنا اليه سابقا. وما لبثت أن تضاعفت آمال شيخ الاباضية في استعطاف الامويين حين تقلد الملك الخليفة التقي عمر بن عبد العزيز (717 — 720م). فأوفد أبوعبيدة الى عمر بن عبد العزيز رسلا يتألف خاصة من سالم الهلالي وجعفر بن السماك الشيخ العالم البصري الذي يحفل للامام المسلمين في المصادر الاباضية لغزارة علمه. ولا يزال الوفد قائما عند الخليفة حين وافت المنية ابنه عبد الملك بن عمر. ولننتبه هاهنا الى أن الاباضية لم يمتازوا عن غيرهم برغبة الاتصال بالخليفة التقي. بل كل يعلم أن فرقة اخرى من الخوارج يرأسهم شوذب ويقومون بديار ربيعة من شمالي العراق الحالي كانوا قد أوفدوا رسلا لهم الى نفس الخليفة.

ورغم جهلنا التام لما أسفرت عنه مساعي ذلك الوفد فمن المحتمل أن يعود الفضل له في تنصيب أياس بن معاوية الاباضي قاضيا على البصرة.

ثم ما فتئت الظروف أن انقلبت على الاباضية اثر وفاة عمر بن عبد العزيز سنة 725م. وكان يزيد الثاني (ابن عبد الملك) من بعده قليل الشغف بآل المهلب (اولئك الذين يتولون اجازة اباضية البصرة) ويخمر جهلنا كل ما طرا في حياة الاباضية طيلة السنوات العشرين التي تواصلت بوفاة عمر بن عبد العزيز. وغاية ما نتمناه أننا نستشف خلالها تغيرا أساسيا في موقف الاباضية بل نتوسم فيها انبعاث النزعات الثورية وزعمائها من جديد. ومن بين هؤلاء الزعماء الذين يتوقون الى "العمل المباشر" ينبغي ذكر أبي نوح. اذ ينادي بقطع كل العلاقات بصفة نهائية مع الخلافة الاموية، وكذا الخطيب المصقع ابو حمد النهدي حين يدعو الجماهير جهارا في خطبة بجوامع البصرة الى الخروج على والي العراق الجديد خالد بن عبد الله القسري (المتوفى سنة 126هـ / 743م.). وكان موقف أمير (كذا) البصرة القاضي بلال بن ابي بردة الاشعري (موقف من لا يبالي بالامر) أمره منذر لكل عمل مباشر" لما لا يزال يضامر قطبه من رجاء في استجلاب الخلفاء لصالح الاباضية. وكان يرى الاباضية أن أسباب الظفر في خروج شبيه بثورات المتطرفة الازارقة ضئيلة. الا انه بعد المشاورة هو وأعيان المذهب اضطر آخر امره

.../...

الى العدول عن رأيه لما خشي التفرقة بين اباضية البصرة وحين رغب أغلبهم في الانتقال من حال القعود الى حال الظهور، فسلك منهجا عمليا مخالفا لما عهد من بقية زعماء الخوارج ، فكان لا يريد للاباضية خروجا دفعة واحدة لغرض تأسيس امامة لهم في اي موضع كان ظاهر البصرة مقتفين في ذلك أثر نافع بن الازرق ، بل أخذ عدته على عكس ذلك في استغلال مجموعة اباضية البصرة ذات العدد والثراء قاعدة لدعوة اباضية عالمية تعم أقطار البلاد الاسلامية كلها ، هكذا فقد قرر اثارة تمردات جزئية في مختلف الاقاليم وانشاء امامة اباضية مثالية تقوم على انقاض الاموية .

ولغرض انجاز خطته شكل ابوعبيدة مسلم شبه حكومة ثورية يتولى نفسه فيها شؤون الدين والدعوة بينما يقوم الشيخ البصري الجليل حاجب الطائي بمهام الحرب والماليه، وأنشئ بيت للمال يتمتع بموارد طائلة على ما يبدو، حتى انه يقال أن تاجرا اباضيا من الاغنياء يدعى أبا طاهر دفع اليه بمفرده مبلغ عشرة آلاف درهم ، كما انشئ بالبصرة مركز للدراسات يقوم به ابوعبيدة في سرية تامة بتمرين تلامذته الذين يفدون اليه من اصقاع البلاد الاسلامية على مهام الدعوة قبل ارسالهم أفواجا كحملة العلم وتعيين من يتقلد منهم الامامة في حينه، على أن ينشر هؤلاء الحملة للعلم الدعوة في مختلف الاقطار ويعلنوا الظهور متى كمل لهم عدد نسبي من الانصار .

ونقلا عن مورخي الاباضية قد وجه أبوعبيدة أفواج حملة العلم الى المغرب واليمن وحضرموت وعمان وخراسان .

وحظى تدبير أبي عبيدة بنجاح باهر فاتسع نطاق الدعوة الاباضية خلال الفوضى التي سادت الاقطار قبيل انقراض الامويين ونشبت في ظرف بضع سنوات بالمغرب وحضرموت واليمن ثورات اباضية أشد بأسا مما عهد من الازارقة، ثورات كادت تقضي على الخلافة الاموية .

وظل اباضية البصرة من جهتهم في الكتمان متسترين بالتقية دون أن يختلف وضعهم بانتقال الحكم الى العباسيين عام 750م . ورغم اعتدائهم الى كسب جوار شخصيات بارزة من بين آل العباس أمثال عمة الخليفة المهدي (775/786م) وزوجها عبد الله بن الربيع وكذا ابنها الذي دان بالمذهب الاباضي على ما ينقله الشماخي . ويبدو أن الخليفة أبا جعفر المنصور (753 — 775م) كان قبل ذلك كثير العناية بالاباضية وكان كما لا نجهله ميالا الى صحبة حاجب الطائي الاباضي .

.../...

وتوفي ابوعبيدة مسلم وحاجب الطائي في خلافة جعفر المنصور. أما ما يراه أبو زكرياء يحي بن ابي بكر الوجلاني من أن وفاة ابي عبيدة مسلم تقع في خلافة الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن الرستمي فنظرية لا تعتمد على سند ظاهر.

وبوفاة ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة اخذت جماعة اباضية البصرة تتقلص شيئا فشيئا. الا انه لا يزال في عهد خليفته الروحي الربيع ابن حبيب قاعدة المجلس الاعلى للمذهب الاباضي قائمة بالبصرة وافواج حملة العلم توجه منها بينما يتولى مشايخ البصرة وضيف الحكم في فتنة النكار (حوالي منتهى القرن الثامن الميلادي) كما لا تزال البصرة مركزا للثقافة الاباضية في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حيث يقتني هذا الامام عددا من الكتب بمبلغ الف دينار كما يذكره السالمي. وما لبث الربيع بن حبيب وبقية مشايخ اباضية البصرة ان تحولوا الى عمان حيث يتخذ ابو سفيان محبوب بن الرحيل خليفة الربيع بن حبيب قاعدته حسب ما ينقله مؤرخو الاباضية واصحاب الطبقات منهم.

وشكرا لحسن انتباهكم

=//=

=//= =//=

سادتي واصدقائي الأعزاء

بعد أن خصصنا القسم الأول من محاضرتنا لدراسة الدور الذي قام به المركز الهام لجماعة المسلمين بالبصرة في تنظيم المجتمع الاباضي وفي تحزيزه تحت اشراف جابر بن زيد ثم ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة، نتهيأ في قسم ثان منها الى عرض الامامات الاباضية التي أسست في ذلك العصر (القرن الثامن الميلادي) في مختلف انحاء الخلافة بفضل جهود ابي عبيدة خاصة.

فأقدم امامة انشأها الاباضية امامة حضرموت واليمن غير أن ظهور الاباضية بجنوب الجزيرة العربية كان قد حصل في ظروف يكتنفها الغموض. فينبغي ربط ظهورهم هنالك بحادثة استيلاء "الخوارج" على جنوب الجزيرة بين 685 و 692م. اذ لو اعتمدنا ما كتبه الجغرافي العربي ابن حوقل (من النصف الثاني للقرن العاشر الميلادي) فان عبد الله بن اباض أول زعيم للأباضية قد ارتحل الى تلك البقاع حيث توفي. ولم يستمر نفوذ "الخوارج" طويلا بجنوب الجزيرة، الا ان النزعات "الخارجية" ظلت سائدة هنالك بعد انقراض ذلك النفوذ سنة 692م. حتى آل الامر أخر ايام الامويين الى نشوب ثورة جديدة اباضية دبرت خطتها بالبصرة يترأسها عبد الله بن يحي الكندي الملقب بطالب الحق والذي كان يتولى القضاء بحضرموت من قبل الوالي الاموي. وكان عبد الله بن يحي تقيا شديد الباس قد اقنعه

أبـوعبيدة مسلم بن ابي كريمة التميمي على وجوب الخروج على الحكـم الاموي فخرج في الايام الاخيرة من سنة127 هـ. أو على الراجح فـي مستهل سنة128 هـ(745/744م) وندب اليه أبوعبيدة عددا مـن الشخصيات الاباضية البارزة من أهل البصرة يعينونه في انشاء امامة بحضرموت فبايعوا اثر وصولهم عبد الله بن يحي على رأس أول امامة اباضية عرفـت في التاريخ . واستولى الثوار على عاصمة حضرموت ثم على صنعاء باليمـن عاصمة جنوب الجزيرة كله سنة129 هـ(747/746م) . ثـم اتجه عبد الله بن يحي نحو الحرمين ففتح مكة بدون أي مشقة ثم استولى على المدينة المنورة في جيش لا يتجاوز تسعمائة او الف مقاتل بقيادة ابي حمزة الشاري . فأصبح الاباضية بالحجاز عندئذ خطرا مباشرا يحدق بسوريا مقر الخلافة الاموية مما أدى مروان بن محمد الى التصدي سريعا للعدوان . فحشد جيشا سوريـا عظيما وتشتت جموع الاباضية في لقاء قرب جورش حين قتل عبد الله بن يحي الا ان الجيش الاموي اضطر آخر الامر الى عقد صلح مع اباضية حضرمـوت حين بايعوا بالامامة خليفة على طالب الحق الى عبد الله بن سعيد الحضرمي أحد الاباضية الكبـار. وينبغي الاشارة الى أن هذه الامامة الاباضية لاتزال قائمة في القرن الحادي عشر الميلادي وان نفوذ الاباضية في بعض أعمـال حضرموت على الاقل لا يزال سائدا حتى القرن الثاني عشر الميلادي رغـم انقراض الامامة نفسها . ولنشر عارضا الى وجود الاباضية بجزيرة سقطرى قرب ساحل الصومال الحالي حيث يذكرهم الجغرافي العربي الحمداني (مـن القرن العاشر الميلادي) باسم الشـراة.

وكـان عمان ميدانا آخر لنشاط الاباضية بالجزيرة العربية غـير أن معلوماتنا حول نشأتهم هنالك جد ضئيلة. ويخيل لنا أن حركتهم كانت متينة الاتصال بحركات اباضية " ما قبل التاريخ " من أصحاب ابي بـلال مرداس" الخارجي " نظرا الى الاعجاب الفائق الذي يضمره أهالي عمـان لشخصية ابي بلال الشاري منذ النصف الثاني للقرن الأول الهجري (السابع الميلادي) . كما يبدو لنا ان المذهب " الخارجي " العماني اكتسى طابعا اباضيا محضا منذ أواخر القرن الأول الهجري بفضل مساعي جابر بن زيـد والعلماء الاباضية الآخرين من أهل البصرة حين أجلاهم الحجاج بن يوسف الى عمان . غير أنه لم تقم دعوة اباضية ذات خطر بعمان الا خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري لما اتجهت نحوه حملة العلم من قبل أبي عبيدة مسلم بن ابي كريمة التميمي . فنشبت حينئذ ثورة اباضية سنة132 هـ = (750م) يرئسها الجلندي بن مسعود من اعقاب احدى الاسر الحاكمـة بعمان قديما ،وبويع له بالامامة . وانقرضت هذه الامامة الاولى بعمان سنة 134هـ(752/751م) اثر حملة شنها العباسيون . ثم ما لبث العمانيون أن اعادوا الكرة خلال النصف الثاني للقرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بفضل حملة العلم الجدد الذين وجههم الربيع بن حبيب من البصـرة.

فاستقـــرت حركة هؤلاء الحملة للعلـم بمدينة نزوى المشهورة الى يومنـا هذا مقرا للامامة الاباضية بعمان. هكذا فقد عقدت الامامة على عمـان سنة 177 هـ (793 م) الى رجل من قبيلة بني يحمد الازدية يدعى محمد ابن عفان. وفي عهد الامام الوارث بن كعب الخروصي خليفة ابن عفـان من 179 الى 192 هـ (795/808 م) لجأت مشايخ البصرة الى عمـان وأصبحت عمان المركز الروحي للأباضية بعد البصـرة.

وكـان بعض رؤساء الاباضية بعمان خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) يحملون لقب الوالي او المتقـدم حين كان الايمـة الرستميون بتاهـرت في المغرب يتفردون بتقليد وظائف الامامة الاباضيـة المعتبرة في العالم وحتى في عمـان. وفي سنة 280 هـ (893/894 م) = احتل العباسيون عمان بعد انتصارهم في لقاء قتل خلاله اميرهم محمـد ابن النور. الا ان التبعية المفروضة على عمان اثر ذلك للخلافة العباسية ظلت تبعية سطحية ولم ينقطع قط في واقع الامر نفوذ الامامة العمانيـة طيلة قرون، فاستمـرت الائمة بنزوى قاعدتهم يفرضون اشرافهم على جانـب من القطر العماني طيلة الزمن حتى يومنا هـذا.

ولنتحـول الآن الى افريقيـا والمغرب حيث قامت جماعة الاباضية مدة من الزمن بابرز دور عرف في تاريخ المذهب الاباضي. وأول مـن دعا هنالك الى المذهب شيخ من شيوخ البصرة يدعى سلامة بن سعيـد (او سلمة بن سعد) أقبل الى القيروان في مستهل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) رفقة الداعي الصفري عكرمة مولى ابن عباس. ويبـدو أن دعوة سلامة بن سعيد لقيت اقبالا كبيرا حتى اننا نجد في طرابلس المغرب بعد مضي عشرين سنة لقدومه اليها جماعة عظيمة من الاباضيـة يرئسهم رجل يدعى عبد الله بن مسعود التجيبـي وينتمي الى قبيلة ذات العزة قبيلة هوارة القاطنة شرقي مدينة طرابلس، ثـم آل الحكم من بعده - بتأييد نفس قبيلة هوارة - الى رجلين اباضيين يدعـى احدهما عبـد الجبار بن قيس المرادى والآخر الحارث بن تليـد الحضرمي. فانتشـر المذهب غربي مدينة طرابلس خاصة عند قبائل زناتة ونفوسة المستقرة بالجبل الذي يحمل نفس الاسم. ويزعم بعضهم ان الحارث بن تليد قد بويـع للرآسة تحت لقب امـام الاحكـام الا ان جمهور المؤرخين يرون أن عبـد الجبار والحارث كانا مشتركين في الحكـم.

وجعلـت القبائل الاباضية البربرية الرآسة اثر وفاة الحاكمين في حادثة تقاتل بينهما سنة 131 او 132 هـ (748 او 749 م) لأسماعيل بـن زيـادة النفوسي المكنـى بأبي الزاجر فبويـع له بالامامة في طرابلس تحت لقب امـام الدفـاع واستولى اثر ذلك على مدينة قابس غير انه لم يلبـث ان قتل قرب نفس المدينة في معركة بينه وبين جيوش عبد الرحمن بـن حبيـب الوالي العربي على القيروان. وفي عهد ابي الزاجر ظهر رجـل

من البربر يدعى عمر بن ايمكتن كانت السير الاباضية تعتبره أول من علم الناس القران بالجبل جبل نفوسه بعد ان تعلمه هو نفسه على الطريق الساحلية التي تصل بين المشرق والمغرب الاقصى .

وبعد انقراض دولة طرابلس الاباضية بوفاة امامها ابي الزاجر اسماعيل بن زياد النفوسي ظل سكان المنطقة اوفياء للمذهب. هكذا فقد أم البصرة نفر من بينهم ومن بين سكان الانحاء المجاورة لهم جنوبي تونس للتفقه عند ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة التميمي والعودة الى اوطانهم لنشر العقيدة الاباضية . ومن بين هؤلاء الشخصيات البربرية عاصم السدراتي (أحد القادة العسكريين البارزين من بعد في احداث سنة 153 هـ اي 772م) وابن مفطير النفوسي (الذي لا يزال على ما يبدو في قيد الحياة سنة 811م) وأبو داود القبلي واسماعيل بن درار الغدامسي . اما ابو داود القبلي واسماعيل بن درار فقد كانوا مع ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح مولى بني معافر (من القبائل اليمنية) وعبد الرحمن بن رستم الفارسي هم حملة العلم الاربع الذين اختارهم ابو عبيدة مسلم رئيس جماعة المسلمين بالبصرة لمهمة انشاء دولة اباضية بين رعايا طرابلس الغرب وعهد اليهم - احتياطا لهم كما هو المعتاد منه - ان يجعلوا الامامة في حينه لأبي الخطاب. وكللت مساعي حملة العلم هؤلاء بالنجاح الباهر سنة 140 هـ (757م) لما بايع اعيان الاباضية بالامامة لأبي الخطاب المعافري واستولت القبائل الاباضية البربرية من هوارة ونفوسة وغيرها على جميع انحاء طرابلس واتخذوا مدينة طرابلس الغرب قاعدة للأمامة ثم دخلوا القيروان العاصمة الافريقية العربية سنة 141 هـ (758م) وبفضل هذا الانتصار اتسعت دولة اباضية شاسعة الارجاء تضم ليبيا (ما عدا برقة) وتونس وشرق الجزائر الحالية .

ثم ما لبثت ان انقضت جنود العباسيين بقيادة محمد بن الاشعث على الامامة الاباضية وأنهت نفوذها عند هزيمة ابي الخطاب شرقي طرابلس ومقتله سنة 144هـ (731م) فلاذت أشلاء جموع البربر بالفرار الى اعماق طرابلس وتسلل فريق منهم الى المغرب الاوسط . فأخذت حينئذ مراكز جديدة للدفاع ضد العباسيين تتكون شيئا فشيئا بينما يقبل عبد الرحمن بن رستم احد حملة العلم - وكان الامير على القيروان من قبل ابي الخطاب قبل انهزامه هو ايضا الى غربي الجزائر - على انشاء مدينة تاهرت قرب تيارت الحالية . فهرعت القبائل الاباضية من نفوسة وهوارة ومزاتة ولماية وغيرها للأنضمام تحت لوائه . ويبدو ان شوكة عبد الرحمن بن رستم بلغت عنفوانها حين جعل رؤساء اباضية طرابلس انفسهم امثال حاتم الملزوزي يدفعون اليه الزكاة طيلة زمن اثر وفاة الخطاب اعترافا له بالافضلية . وتجدر الاشارة هنا الى أسماء زعماء آخرين من هذا العصر امثال عاصم الصدراتي ومسور الزناتي .

وقد آل نشاط أولئك الزعماء سنة 151 هـ الى نشوب ثورة اباضية

أخرى ساهم فيها صفرية تلمسان وقادها ابو حاتم الملزوزي بعد ان عقدت له امامة الدفاع • وتفاصيل هذه الثورة مشهورة في المصادر الاباضية أو السنية أهم اطوارها فتح القيروان ثانيا وحصار طبنة بمنطقة الزاب • واستمرت الثورة بضع سنين الى انهزم ابو حاتم وقتل في لقاء شرقي طرابلس سنة 155هـ (772م) •

والتجأ اثر هذه الهزيمة عدد من قبائل البربر الاباضية صوب المغرب الاوسط بدون شك اللحاق بعبد الرحمن بن رستم • فتحول بذلك محور دفاع الاباضية بشمال افريقيا من طرابلس الى مدينة تاهرت غير أن معظم بطون نفوسة وزناتة ولماية لم يغادروا طرابلس والجنوب التونسي • وبعقد الامامة لعبد الرحمن بن رستم سنة 160هـ (776م) شرع ائمة تاهرت في تعزيز نفوذهم على الاباضية اجمع • وبلغ المذهب الاباضي أوج عزه ايام الامامين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (748/823م) وابنه افلح من بعده (الى حوالي 872م) حين جد عبد الوهاب في توحيد كلمة الاباضية كلهم او يكاد وفي ضم اقطارهم من تلمسان حتى حدود طرابلس الشرقية الى دولة واحدة تنقسم الى قسمين اصليين • وكان يحجز بين القسمين مملكة الاغالبة المحاصرة شمالي تونس وشرقي الجزائر الحالية • وليس ثمت سبيل للعبور من القسم الغربي حيث تزدهر العاصمة تاهرت الى القسم الشرقي للامبراطورية الا عن مضيق يصل بين الزاب والجنوب التونسي من قفصة وبلاد الجريد سلسلة جبال مطماطة • ولم يهتد الاغالبة الى فك الحصار المفروض عليهم واحتلال المضيق أعني عمالات قفصة والساحل التونسي وبلاد الجريد الا سنة 839م • وبانتصار القائد الاغلبي عيسى بن ريان الأزدي على الجنوب التونسي ومحق النفوذ الاباضي به وقع الفصل نهائيا بين قسمي الامبراطورية الاباضية بالمغرب •

أما خارج شمال افريقيا فقد كانت جماعات الاباضية بالبصرة والمشرق كله يتسبب اعترافهم بسيادة عبد الرحمن بن رستم وخلفائه ، يؤرخون بأسمائهم كتبهم ووصاياهم • ولا غرو أن هذا الاعتراف جعل الأئمة العمانيين خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) يضمون الى اسمائهم لقب الوالي او المتقدم على ما اشرنا اليه سابقا •

وأخذت الدولة الرستمية شيئا فشيئا في الانحلال حوالي النصف الثاني للقرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) لأسباب أهمها الانشقاقات والفتن الدينية والسياسية كفتنة النكار وانشقاق الخليفة وانفضال ابن مصالة بدولته المستقلة قرب تاهرت وغير ذلك • ومن اسباب الانحلال حجز الاغالبة بين القسمين الشرقي والغربي للأمراطورية • ثم ما لبث ان انعدم نفوذ الرستميين بطرابلس الغرب كلها ما عدا اقليم الجبل وذلك اثر انكسار شوكة القبيلة البربرية الاباضية الداعمة للرستميين بجنوب تونس وطرابلس قبيلة نفوسة أمام الجيش الاغلبي بواقعة مانو (على الساحل بين مدينتي طرابلس وقابس) سنة 896م • وظلت بعد ذلك بقايا الدولة الرستمية قائمة الى أن قضى عليها جيوش ابي عبد الله الشيعي سنة 909م واقيمت على انقاضها وأنقاض الاغالبة

وبنـــى مدرار سجلماسة دولة جديدة ذات الطول الدولة الفاطميـــة. وعند دخـــول الجيش الفاطمي تاهرت انسل آخر الائمة الرستميـــين ابو يوسف يعقوب هاربا رفقة افراد عائلته وأعظم علماء تاهرت ووجوهها ميممين اقصى اقاليم الدولة الناهرتية جنوبا نحو سدراته (في واحـــات وارجلان) حيث جعلوا يترددون زمنا في اعادة الكرة واعلان الامامـــة الاباضية بتلك الاصقاع. ثم أزمعوا العدول نهائيا عن الامر لا سيما وقد أنشئت في نفس الظروف "امامة" اباضية بالجبل جبل نفوسة- واعني بذلك رآسة أبي يحي زكرياء الارجاني . ويحمل ابو يحي هذا لقب الحاكـــم أو الامام المدافـــع في المصادر الاباضيـــة. واستمر حكم الارجاني طيلـــة خمس عشرة سنة بمقره بالجبل. وعلى هذا يكون مثال الارجاني المثـــال الأوحد لزعيم اباضي وهبي حمل على ما نعلم لقب الامام بشمال افريقيا بعد انهزام امامة بني رستم . ولم تتجاوز سلطة ابي يحي جبل نفوسة وان سعى في ابقاء اقليمه مستقلا عن حكم الفاطميين ووفق لذلك. وبعد وفاة ابي يحي زكرياء الارجاني استمر الحكـــام (ومن بعدهم الشيـــوخ) الاباضية بالجبل يتمتعون بشبة استقلال حتى الرابع عشر الميلادي.

هـــذا وانني - وفقا لما رسمته لنفسي في عنوان محاضرتي - أدع جانبا تاريخ الاباضية بشمال افريقيا في الفترة التي تمتد اثـــر انقراض الدولة الرستمية بتاهرت محيلا مستمعي الاعزاء الى دراساتـــي الكثيرة حول اباضية شمال افريقيـــا والى المقال الجامع الذي افردته == للموضوع في دائرة المعـــارف الاسلامية تحت مادة "الاباضية". وأحيلهم كذلك الى عدد من الدراسات ذات الاهمية التي اخلصها العلمـــاء الاباضية والمستشرقون الآخرون، خاصا بالذكر من بين هؤلاء المستشرقين دي كلسانتي متيلنسكي وزجسموند اسمغورزيفسكي.

وشكـــرا لحسن انتباهكـــم.

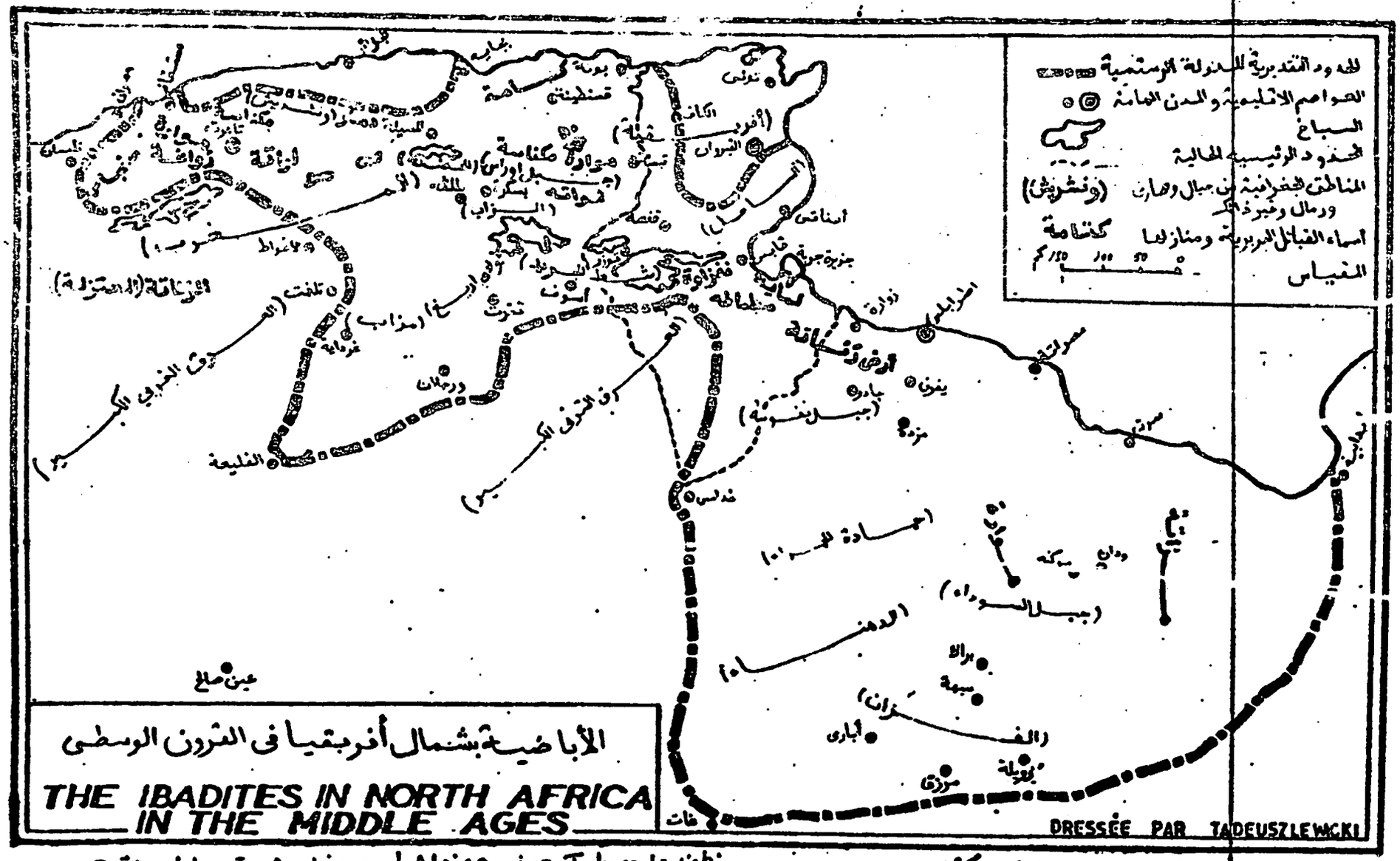

The Ibadites In Arabia and Africa por Tadeusz Lewicki
(Cahiers d'Histoire Mondiale de l'UNESCO n° 2)
Editions de Baconnier, Neuchâtel Suisse 1971

اقتبست الخريطة من كتاب :